عاشقة المدينة

في إحدى المناطق الشعبية من بيروت، في أواخر ثلاثينات القرن المنصرم، اندفعت بهيّة على السلم المتآكل لبيتهم الصغير هاربة نحو الشارع. وبمجرد خروجها من زاروب بيتهم، وابتعادها عن الكره المقهور المتفجر في حنجرة أمها، فاحت في أنفها الروائح التي تحب: الخبز الطالع من الفرن والفول والحمص المهيآن للتدميس والتتبيل والشاورما الناضجة ورائحة الجلد من دكان الإسكافي الذي لا يكاد يتسع له ولعدته.
تدفقت في عيناها المشاهد التي مازالت تفتنها منذ قدومها مع أمها وإخوتها من القرية: أناس من جميع الأعمار والأشكال يتأبطون الحقائب المدرسية أو أكياس الخضار والفاكهة أو ملفات العمل أو جعبة التحصيل.
كل في انطلاق واثق نحو الهدف. وفي مقابل دينامية هؤلاء، آخرون يستوقفون الوقت أو يمضغونه أو يتأملون حركته بإصرار على الوقوف خارجها: نساء يتحدثن عبر الشرفة أو رجال يجالسون رفاق لهم من رواد القهوة، بعضهم يدخّن النارجيلة والبعض الآخر يلعب طاولة الزهر وآخرون يتحدثون أو يراقبون المارة.
لعل أكثر ما كان يثير إعجابها هذا التفاوت في الانهماك الذي يوحي بأن لكل إنسان أن يختار ما يقوم به أو ما يشاغل نفسه به عند رغبته بالعزوف عن العمل. أما هي فما كان لإرادتها من تأثير على كل ما تفعله أو ما يقع لها. ولعل شعورها بهذا التفاوت بين ما رأته من ساحة واسعة للإرادة عند أهل المدينة وما كانت تشعر به في القرية من تضييق ورتابة وضرورة الانصياع للمكتوب والمرسوم هو ما دفعها بشغف لعصيان أوامر أمها بعد انتقالهم إلى المدينة.

وقفت أمام دكان صانع القمصان الرجالية تتأمل شطارته في العمل وتعجب من دقّة شقيقه الرّتا الذي ينتحي زاوية من محل أخيه، منكبّاً على رتق الثياب ناظراً إلى فتوقها من خلال عدسة مكبرة. نسيت نفسها وهي تتأملهما. تبسّم الخياط لها ولم يسألها إن كانت تريد شيئاً كما كان يفعل في الأيام السابقة، فقد بات يعرف أن غايتها هي الفرجة وكأنها تحاول الارتواء من المشاهد التي يصوغها عمله. راقه أن يجد من يعجب بمهارته، ولو كانت المعجبة فتاة قروية لا تتجاوز العاشرة من عمرها.

بصعوبة سحبت نفسها من أمام الدكان للعودة إلى البيت كي لا يتفاقم ما تعلم أنه ينتظرها من صراخ أمها واتهامها لها بأنها تخرج ليغازلها البائعون وبأنها لا بد ستجلب العار للعائلة. لكن صناعة المناقيش في الفرن شدّتها إلى الفرجة من جديد، فوقفت تعجب من شطارة الفرّان الذي يضع الزعتر والزيت فوق أرغفة العجين المرقوق و"ينقشها" ويرمي بها إلى الفرن الحامي بسرعة أقرب إلى لمح البصر.

عندما عادت إلى البيت الذي مازال محتفظاً برائحة القرية التي لا تذكّرها إلا بالملل والأيام الطويلة الفارغة، والإرادة المسلوبة، قابلتها أمها بصفعة على وجهها، بالإضافة إلى ما تعوّدت أن تقابلها به مؤخراً من شتائم تفترض خروجها عن معايير الشرف والناموس. ولمّا تساءلت الأم في فورة غضبها عمّا يمكنها أن تفعله إزاء عناد ابنتها الجاحدة وخروجها عن السلوك المرغوب، أجابتها الابنة المنتحبة: "أرسليني إلى المدرسة". عندها زاد غضب الأم وأخذت تضربها بقساوة أكبر قائلة: "ألا يكفي ما أنت فيه من مزايا العقوق والعناد حتى أزيد عليها تعليمك كي تكتبي عندما تكبرين الرسائل الغرامية لعشاقك؟".

وحتى الآن، بعد موت الأم وتخطي بهية السبعين من العمر، لا تزال بهية عاشقة للمدينة تخرج يومياً إلى التقاط نبض شوارعها ونفس حركتها المحمومة أو تكاسلها وما ينطوي عليه من أنماط التسلية المتاحة، ولا زالت تحدثني كلما التقيتها بما تعتقد أنها كانت ستكون عليه حالها لو ذهبت إلى المدرسة، فهي حيناً تقول أنها كانت ترغب بكتابة المسرحيات الفكاهية وحيناً آخر تتحدث عن رهافة ذوقها في اختيار الملابس وما كانت ستقوم به لو أصبحت مصممة للأزياء. وفي آخر لقاء لنا تساءلت عمّا كانت ستكون عليه حياة أمها لو كان تسنى لها أن تنال قسطاً من العلم بدل قضاء العمر منتظرة زوجاً لم يعد وحاقدة على امرأة سرقته منها، وعلى كل النساء الجميلات بما فيهن ابنتها بهية. {كلتاهما عاشت حياتها مع وقف التنفيذ لما ترغب به ومع كبح ما لديها من قدرات ومواهب. متحملة شبه الفراغ المترامي على مدى حياتها الطويلة. بل لعل حياة بهية العانس كانت أكثر فراغاً من حياة أمها التي اضطرتها الظروف لأن تعنى بأولاد رزقت بهم، رغم ضآلة ما لديها من مشاعر الأمومة ومسؤوليتها والفرح الذي يمكن أن تجلبه لمن تريد أن تملأ بها حياتها، أو جزءاً منها}.

وفي ذلك اللقاء قالت بهية ضاحكة بعد إطراقة طويلة: "لماذا يستبقيني عزرائيل مقيدة في هذه الحياة التي مرّت عقودها دون أن أفعل شيئاً. لو أخذني من بضع سنوات لكنت ولدت من جديد وأصبحت الآن تلميذة تحمل حقيبتها وتذهب إلى المدرسة".

سلوى بعقليني